فرق ومقالات

نشأة الصوفية والجذور التاريخية لمقالاتهم

عبيد الله الباقي أسلم

اختلف في أصل اشتقاق كلمة «الصوفية»؛ والصحيح أنها منسوبة إلى اللباس الظاهر المسمى بالصوف، قال ابن فارس:«الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح، وهو الصوف المعروف»(١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «واسم الصوفية: هو نسبة إلى لباس الصوف؛ وهذا هو الصحيح»(٢).

وكذلك اختلفت وكثرت عبارات العلماء في بيان حقيقة الصوفية، والصحيح أنها فرقة: **أولها:** البدعة في الزهد والرياضات النفسية والأوراد والأذكار والانقطاع لعبادة الله تعالى، **وآخرها:** الزندقة والإلحاد والحلول والاتحاد(٣).

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «وقد صار لفظ الصوفية لفظًا مجملًا يدخل فيه من هو صِدِّيق، ومن هو زنديق»(٤).

وقد نشأ التصوف في أوائل القرن الثاني الهجري، وأنه لم يشتهر إلا بعد القرن الثالث(٥) عندما أقبل الناس على الدنيا وانصرف أناس للزهد والعبادة فسموا بالصوفية(٦)، فالاسم (الصوفية) لم يكن موجودا وقت الصحابة -رضي الله عنهم-(٧)؛ ولم يكن للتصوف في أول نشأته جماعة معروفة بعينها لها نظامها الخاص ورئيسها المعين، وإنما تميزت

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٣٢٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٩٥).
(٣) ينظر: مقالات الفرق (ص: ٣٨٦)، وأصول مسائل العقيدة عند السلف والمبتدعة (١/ ٢٧).
(٤) الرد على الشاذلي (ص: ٧٤).
(٥) ينظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٥ - ٧).
(٦) ينظر: مقدمة ابن خلدون (ص: ٤٦٧).
(٧) ينظر: كشف المحجوب (ص: ٢٣٩).

الجماعات الصوفية في أول أمرها بالزهد المبالغ فيه ومحاربة النفس والتوكل على الله تعالى في جميع أمورهم -كما يزعمون-(١).

ثم ظهر التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين في صوة جديدة حيث أنه تجاوز حدود الزهد والرياضة والمجاهدة إلى فناء الإنسان في نفسه واتحاده بربه، ولقد تأثرت الصوفية في هذه الفترة بالمذاهب الفلسفية القديمة كالهندوسية والبوذية والفارسية واليونانية والنصرانية المحرفة والباطنية وغيرها(٢).

وفي القرن السادس والسابع والثامن الهجري بلغت فتنة الصوفية أقصاها؛ فانتشرت البدع والخرفات من العشق والوجد والفناء والاتحاد والحلول وغيرها من أنواع الشرك والإلحاد(٣).

فالمذهب الصوفي بدأ بالبدعة في الزهد والعبادة، ووصلت إلى الشرك والإلحاد.

وأما مقالات الصوفية فلها عدة جذور تاريخية، ومنها ما يلي:

أولًا: الأفلاطونية اليونانية الغربية:

إن أثر الفلاسفة اليونانية يتمثل في نظريات الصوفية: وهي القول: «بوحدة الوجود»، و«الحلول»:

كما قال العلامة إحسان إلهي ظهير –رحمه الله–: "الأفلاطونية الحديثة هي أحد المصادر الأساسية للتصوف، بل إنها هي المصدر الأول للنسبة للقائلين بوحدة الوجود والحلول..."(٤).

ثانيًا: أديان الهند الوثنية:

إن الصوفية قد تأثروا إلى حد كبير بأديان الهند القديمة في تعاليهم وفلسفتهم وعقائدهم، ومنها:

أ –القول بالحلول:

إن الاعتقاد بالحلول مأخوذ من العقائد الهندوسية؛ «فالفناء الصوفي» الذي يسعى أصحابه للحلول والاتحاد بربهم؛ هو نفس العقيدة الهندوسية: «النرفانا»،

(١) ينظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (ص: ٣٨).
(٢) المصدر السابق (ص: ٤٢ – ٤٥).
(٣) ينظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (ص: ٤٦).
(٤) التصوف المنشأ والمصادر (ص: ١٢١).

ومن جملة معانيها: (الحلول) والاتحاد والاتصال ب «برهما»(١).

ب –القول بوحدة الوجود:

يعتقد الصوفية أن الحق عين الخلق(٢)؛ وهذه عقيدة هندوسية، كما قال الدكتور عبد القادر محمود: "وتبدو نظرية وحدة الوجود واضحة في «اليوبنيشاد» على الأخص حيث يؤكد في تعبيراته الشعرية أن الله والنفس الإنسانية شيء واحد"(٣).

ج –نظرية تعذيب النفس وحرمانها من الحياة السعيدة:

أن التصوف الغالي بالمعتقدات والديانات الهندية (الهندوسية والبوذية) تتفق على أصل واحد يجمعها، وهو أن الطريق لتحصيل السعادة هو تعذيب الجسد بالجوع وأنواع الرياضات(٤)، وقد قرر البيروني أن الديانات الهندية تذهب إلى أن المعرفة لا تحصل للنفس البشرية إلا بعد أن تتهاون بالبدن، وتريد مفارقته بالعزلة والانفراد، وتتعود تعذيب النفس بالتقشف(٥).

والحاصل أن عقيدة الفناء والحلول ووحدة الوجود وتعذيب النفس بالرياضات الشاقة كلها مأخوذة من الديانات الهندية(٦).

ثالثًا: المسيحية المحرفة:

لقد تأثر الصوفية بالعقائد النصرانية المحرفة كثيرًا، ومن مظاهرها: لباس الصوف والرهبنة، قال أبو العالية: إنما هذه ثياب الرهبان إلى اتخاذهم الزوايا والتكايا للعبادة، ولم يعرف المسلمون دورا للعبادة إلا المساجد، ويقال: إن هذا من تقليد النصارى(٧)، وقال ابن الحوزي: "إنهم (الصوفية) تشبهوا بالنصارى بانفرادهم

(١) ينظر: دراسات في أديان اليهودية والمسيحية وأديان الهند (ص: ٦٣١).
(٢) ينظر: جواهر المعاني وبلوغ المعاني (٢/ ١٨٨ – ١٨٩).
(٣) الفلسفة الصوفية في الإسلام (ص: ١١).
(٤) ينظر: مقالات الفرق (ص: ٣٩٢).
(٥) ينظر: تحقيق ما للهند من مقولة (ص: ٥٣ – ٥٤).
(٦) ينظر: مدخل إلى التصوف (ص: ٣٠)، والتصوف والمنشأ والمصادر (ص: ٩٧)، والبوذية وعلاقة الصوفية بها (ص: ٣٦٩).
(٧) نفحات الأنس (ص: ٣١ – ٣٢)، ينظر: التصوف المنشأ والمصادر (ص: ٤١).

بالأديرة"(١)، وقد اعترف الصوفية بذلك كما قال إبراهيم بن أدهم: "تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان"(٢).

كما أنهم تأثروا بعقيدة النصارى التي تقول بحلول اللاهوت في الناسوت، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "الحلول الخاص: وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به، كحلول الماء في الإناء. وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية النُسَّاك الذين يقولون بالحلول في الأولياء ومن يعتقدون في الولاية أو في بعضهم: كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء"(٣).

رابعًا: الباطنية:

وقد تشابه الصوفيةُ الباطنيةَ في أصول عديدة، كالتشابه بين عقيدة الإمامة عند الشيعة والولاية عند الصوفية، والقول بعصمة الأئمة عند الشيعة وعقيدة حفظ الولي عند الصوفية، والاشتراك في بعض المظاهر الشركية، وكذلك في منهج التأويل الباطني للنصوص؛ فلدى الشيعة التأويل الباطني، ولدى الصوفية التفسير الإشاري الذي يتحول إلى تأويل باطني(٤)، قال ابن خلدون: "... وكان سلفهم (أي: سلف المتأخرين من المتصوفة المتكلمين) مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضًا بالحلول وإلهية الأئمة مذهبًا لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفرقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم"(٥).

خلاصة القول: أن التصوف نشأ من ينبوعين مختلِفَين:

الينبوع الأول: الزهد في الدنيا، والانقطاع للعبادة.

الينبوع الثاني: الفكرة الفلسفية، والديانات القديمة(٦).

***

---

(١) تلبيس إبليس (ص: ١٧٥).
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٣٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ١٧١ - ١٧٢).
(٤) ينظر: مقالات الفرق (ص: ٣٩٣ - ٣٩٤).
(٥) مقدمة ابن خلدون (٢/ ٢٣).
(٦) ينظر: ابن تيمية... حياته وعصره (ص: ١٦٥ - ١٦٦).